

سلطة النحاة بعد عصر الاحتجاج

شعر أبي تمام أنموذجا

د. سعيد شواهنة

جامعة النجاح الوطنية - فلسطين

الملخص

يتناول البحث بالدراسة موقف اللغويين في العصر العباسي من رائد حركة التجديد وهو أبو تمام، الذي يعد بحق من دعائم حركة التجديد في عصره، ويلقي الضوء على ملامح التجديد في اللغة وموقف اللغويين من التجديد في الألفاظ والتركيب الانزياح اللغوي، موضحة المعركة النقدية التي دارت حوله من الجانب اللغوي. لقد حظي العصر العباسي بحركة تجديدية في مجالات الأدب كافة، واللغة مادة الأدب ووعاؤه، ولا بد أن تتأثر بتلك الحركة لذا فإن هذا البحث سيناقش التجديد في اللغة من خلال ما دار حول لغة أبي تمام.

Abstract

Research deals with studying the position of linguists in the Abbasid period of the pioneer movement of renewal which Abotmam, which is the right of the pillars of the movement of renewal in his time, and sheds light on the features of innovation in language and the attitude of linguists of renewal in the words and Altertkib and displacement of language, explaining the battle of cash that took place around him from the side language.

It was the Abbasid innovative movement in the areas of all literature, language and literature Uaaah material, and must be affected by such movement, so, this research will discuss

innovation in the language through the language of what was discussed about Abu Tammam.

مقدمة:

تلاقحت الثقافات في العصر العباسي من هندية وفارسية ويونانية وعربية وغير ذلك، فولدت لغة تتماشى مع نتاج هذا التلاحح الحضاري والثقافي، تلك اللغة التي كانت محور نقاش بين العلماء، فانقسموا إزائها إلى فريقين: الأول: يتماشى مع القديم وينعت اللغة الجديدة بالمارق والناشز، التي انسلخت عن المعيار اللغوي أو معيار الفصاحة. والآخر شقق اللغة وجعلها تلامس مظاهر الحضارة، اعتمد الشعراء على ألوان غير الألوان القديمة مزجوا ألوانهم بطريقة مغايرة عما كان عند القدماء، فرسموا لوحة الحضارة التي تخلو من الوقوف على الأطلال ووصف الناقة أو وصف الأثافي، تلك رموز لم يرها العباسيون فكيف يصورونها؟ انزاح الشعراء في لغتهم عن المعهود وجددوا في المجازات والاستعارات مما حدا ببعض اللغويين الذين اعتادوا سمت القديم واللغة البدوية أن يقولوا: "لم نفهم ما يقال؟". فهذا وحده كاف إلى متابعة الشعراء ووصفهم بالخروج عن المعتاد المحفوظ في الذاكرة الجمعية لدى هؤلاء اللغويين .

لقد جدد الشعراء في العصر العباسي جل الأمور من حيث البديع والموضوعات والصور والمجازات واشتقوا ألفاظا لم يعهد لها اللغويون، فكانت المصيبة أنهم لم يحتجوا بلغتهم ولا بشعرهم؛ لأنهم خرجوا عن المعيار، وحوى شعرهم ألفاظا دخيلة، وخالطوا غير العرب وأتوا بالغريب، وتكلفوا البديع الخ . وكيف لا، وهم في عصر الثقافات والمناظرات والأحزاب والأجناس، فهو شعب معقد التركيب فلا بد للشاعر من أن يعبر عن هذا النسيج المجتمعي بما يلائمه من اللغة، لذا فإن هذا البحث جاء ليسر غور موقف اللغويين من صاحب المذهب الذي يسمى باسمه وهو أبو تمام، ذلك العملاق الذي عاش في العصر العباسي يحمل لواء التجديد وينال إعجاب الجماهير، ولكنه لم يخل من النقاد والحساد والحاقدين الذين عابوا عليه خروجه عن المألوف، ذلك المؤلف المتخيل في عقولهم ليس له وجود على أرض الواقع.

ولقد سبقه إلى حمل هذا اللواء أبو نواس وتمرد على عمود الشعر وحارب المقدمة الطللية ولكنه لم ينل ما نال أبو تمام من نقد، فقد عقدت للأخير الموازنات وترصدوا عيوبه وعابوا عليه غريبه، ونعتوه بأنه يتكئ على نفسه، ويلجأ إلى تشويق اللغة كل هذا أدى إلى ولادة فريقين: فريق يؤازر أبا تمام، والآخر يجّهله ويعيبه، وظهر في ظل هذه الظروف مصطلح الحديث والقديم، ذلك المصطلح الذي يرمي بظلاله إلى هذه اللحظة، وسيعرض البحث إلى القديم والحديث، وموقف اللغويين والنحويين منه، والاستشهاد بشعر أبي تمام، وموقف النقاد من الانزياح اللغوي عنده.

القدم والحداثة:

كانت الظاهرة التي يمثلها أبو تمام في الشعر قد شغلت النقاد والمندوقين في القرنين الثالث والرابع، وكانت قضية القدم والحداثة مسيطرة على عقولهم "فالقدم والحداثة من الأمور النسبية التي تخضع لطبيعة الحياة ومقتضى تطور الزمن فمن عاصر الإنسان فهو حديث وكل ما أنتجه فهو محدث، ومن سبق العصر الذي يعيش فيه المرء فهو قديم وما أنتجه أبناء هذا العصر يطلقون عليه أنه قديم" (1)

والخصومة بين القديم والحديث نشبت منذ العصر الأموي على الرغم من أنه لم يحدث تغيير كبير بالشعر، بل ظل جاهليا في كل عناصره، ولكن يبدو أن الذي أثار الخصومة هم اللغويون والنحويون، فلقد شارك هؤلاء في تسيير الحركة النقدية، والمعيار عندهم يتمثل في القرب من العصر الجاهلي. وكان مما خاض به هؤلاء اللغويون والنحويون القديم والجديد، ومالوا إلى القدماء وبينوا فضلهم في الاحتجاج وتعصبوا لشعرهم، من هنا بدأت الخصومة ومن ذلك نرى قول ابن رشيق: "كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته، وكان يقول عن الأخطل: لو أدرك الأخطل يوما واحدا في الجاهلية ما قدمت عليه أحدا" (2) من هذا نرى أن العصر هو الفيصل في الحكم بين الشعراء يقوم على مبدأ التعصب، إذا ذهبنا إلى رأيه في شعر ذي الرمة الذي يمثل الجاهلية في العصر الأموي، يقول فيه: "إنما شعره نقط عروس تضحل عما قليل، وأبعار ظباء لها شم في أول شمها ثم تعود إلى أرواح الأبعار" (3)

ونجد أن أبا عمرو بن العلاء يفضل الأخطل على جرير والفرزدق، يقول: شعراء الإسلام الأخطل ثم جرير ثم الفرزدق، ويونس بن حبيب يجب من سأله أي الثلاثة أشعر بأن العلماء أجمعوا على الأخطل" (4).

ومهما يكن من أمر فإن الخصومة بين القديم والحديث في العصر الأموي لم تصل ذروة الخصومة في العصر العباسي يقول الحديدي: " لكننا لا ننكر أن الخصومة في العصر الأموي لم تكن في قوة الخصومة في العصر العباسي بحال من الأحوال، لعدم وجود فروق جوهرية ودقيقة بين شعر الأمويين وشعر الجاهليين" (5). تتجلى هذه الخصومة بين القدماء والمحدثين على أشدها في الصراع بين القديم والجديد والواقع أنه لم يشهد عصر من عصور الأدب العربي صراعا بين القديم والجديد مثلما شهد العصر العباسي، فقد كان هنا صراع عنيف وشديد بين رجال اللغة والأدب والشعراء المجددين (6).

لقد حرص اللغويون والنحويون على القديم من حيث التشدد اللغوي، وارتبط هذا التشدد بالاهتمام بالتراث الشعري القديم مما حدا ببعض حفظة اللغة أن يسمع البيت ويستحسنه وعندما يعلم أنه من الحديث يذمه ويقلل من شأنه، من ذلك: ما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جل الرواة من يلهج بعيب المتأخرين إن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله ورأى تلك الفضاضة أهون محملا وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث، والإقرار بالإحسان بمولد، حكى عن إسحق بن إبراهيم الموصلي أنه قال أنشدت الأصمعي:

هل إلى نظره إليك سبيل فييل الصدى ويشف الغليل
إن ما قل منه يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الخسرواني. لمن تنشدي فقلت إنهما ليلتهما فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر" (7)

لله درّه يعجبه الشعر لكن يحكم عليه بالرداءة والتكلف عندما عرف قائله، بل عندما عرف عصر قائله، ونرى من شدة التعصب لا نعرف أهو للقديم أم التعصب على الشاعر نفسه؟

فابن الأعرابي يسمع الشعر ويستحسنه ويطلب أن يكتبه وعندما علم أن الشعر لأبي تمام أمر بتمزيقه. أي موضوعية في هذا الطبع النقدي؟! يقول الصولي: ومن الإفراط في عصبيتهم عليه ما حدثني به أبو العباس عبد الله بن العباس قال: "حدثت إبراهيم بن المدبر ورأيتَه يستجيد شعر أبي تمام ولا يوفيه حقه -محدث حديثه أبو عمرو بن الحسن الطوسي وجعلته مثلا له فقال: وجه بي أبي إلى ابن الأعرابي، لأقرأ عليه أشعارا وكنت معجبا بشعر أبي تمام فقرأت عليه من أشعار هذيل ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنه لبعض شعراء هذيل:

وعاذلٍ عدلته في عدله فظنَّ أبي جاهلٌ من جهله
حتى أتممتها، فقال لي: اكتب لي هذه، فكتبتها له، ثم قلت: أحسنه هي؟ قال: ما سمعت بأحسن منها، قلت: إنما لأبي تمام فقال: خرق خرق" (8) أي مزق مزق.

ويتعصب ابن الأعرابي للقديم ويقول: "إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيلقى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته زاد طيبا" (9)

وقد بلغ تسلط علماء اللغة وتعصبهم للقديم أن الخليل بن أحمد يقول مقولته المشهورة التي تحدى بها الشعراء فقال لابن مناذر الشاعر: "إنما أنتم معشر الشعراء تبع وأنا سكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتكم" (10)
"منذ بشار بن برد نجد اللغويين يتعقبون الشعراء في أساليبهم فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادة الفصحى أعلنوا النكير عليه" (11)

وهكذا نجد أن اللغويين والنحويين عندما أسسوا مملكة الاحتجاج وأحاطوها بسورين وهما: السور الزماني، والسور المكاني فما قرب في الزمن من فترة الاحتجاج كان القدوة والمحتذى، وما زاول ذلك العصر، مهما كان صاحبه ومهما وصل من بلاغة وفصاحة نظروا إليه نظرة دونية، وتعقبوا هفواته وبعثوه بالتكلف والمغالاة. فالمعيار اللغوي هو العصر، ولم يبنوا الاحتجاج على أسس موضوعية بل إن بعض اللغويين - فيما أرى - لم يفهموا لغة العصر الجديد ولم يعطوا

اللغة العربية حقها فلكل عصر لغة التي تتماشى مع ما فيه من تقدم وحضارة ولم يمت الفصح حتى يقبر في عصور الاحتجاج، ولو تتبعنا ذلك لوجدنا إجحافا في حق الشعراء الذين نبغوا في عصر التجديد والحضارة ووجدنا اللغويين والنقاد على حد سواء يقفون لهم بالمرصاد متخذين المثال من عصر الاحتجاج.

موقف اللغويين والنحويين من الاستشهاد بشعر المولدين:

لم يميز أئمة النحو واللغة بين شاهد وآخر حتى شاع اللحن، وكان من نتيجته أن تجاوزوا الحد في طلب التساهل وكان سبب ذلك الحضارة، وسهولة طباع الأخلاق، هذه الأسباب دفعت اللغويين أن يضعوا معيارا لغويا تنتهي عنده الفصاحة، وهذا المعيار المثال اعتمد أصحابه في جل الأمور على العصر الذي سبقه، لأن الفصاحة لا حد لها ولا زمن، لذلك اتفق اللغويون على أن يكون آخر شاعر يحتج بشعره ابن هرمة، وكان أبو عبيدة يقول: "افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بابن هرمة" (12) لقد كانت جدلية القديم والحديث لجاما للغة حتى نجد أن العلماء أنفسهم اختلفوا في مفهومها، ونجد دليلا، على ذلك قول أبي عمرو بن العلاء: "لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن أمر صبيانا بروايته - يعني بذلك شعر جرير والفرزدق فجعله مولدا غير أن المشهور بين الناس والعلماء الذين تأخر بهم الزمن عن أبي عمرو أن المولدين تبدأ قوافلهم مع بداية الدولة العباسية بطبقة ابن هرمة وبشار ومروان بن أبي حفصة، أما من قبل ذلك فيحتج بهم (13)

والمهم هنا أن المولد والمحدث من الكلام في مقابل العربي الأصيل، منه اضطرت أراء العلماء في تحديد عصره وفرق تبعا لذلك بين مادة اللغة من حيث القبول والرفض. ويمكن بيان موقف اللغويين على النحو الآتي:

أولا: المتعصبون للقديم:

فقد تشدد الرواة القدماء بالاستشهاد بالشعر المعاصر لهم أو القريب من عصرهم فنجد علماء الطبقة الأولى من اللغويين كأبي عمرو بن العلاء والحضرمي والحسن البصري يلحّثون الفرزدق والكميت وذا الرمة. (14)

وروي عن الأصمعي "أنه جلس إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعه يحتج بيت
إسلام" (15)

"وفي نظرهم أن هذا الشعر المحدث وليد الحضارة لا يمكن أن يتمشى مع الروح العربية ولا
يمكن أن يخلو من اللحن في إعراب أو اشتقاق أو وزن أضف إلى ذلك أمرا مهما جدا لديهم
، هو حاجاتهم إلى الشاهد في التدوين وقله ثقتهن بما يأتي به المحدثون" (16)

ومن اللغويين المتعصبين للقديم أبو عمرو بن العلاء فهو إمامهم في التعصب للقديم الجاهلي
ورفض الاعتراف حتى بأشعار كبار المسلمين يقول طه إبراهيم: "شيخ علماء اللغة وأسئمتهم،
كانت ذهنيته جاهلية وتعصبه شديدا للجاهليين فلا يرى الشعر إلا لهم ولا يرى من بعدهم،
وغالى في ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة لا لسبب إلا لأنه متقدم وإلى
التأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر وحتى أقام الموازنة على العصر لا على الشعر،
فقال لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا وحتى قال في أشعار
كبار الإسلاميين: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته، ومن كان شأنه مع
الإسلاميين فأحرى به ألا يسلم بفضل المولد" (17)

"ومن المتعصبين للقديم أيضا خلف الأحمر، أحد رواة الشعر القديم والمتعصبين له، وموقفه من
ابن مناذر الذي كان من الشعراء العباسيين المتعصبين للقديم المقلدين له، وبرغم ذلك لم يسلم
من نقد علماء اللغة، ولذلك وقع بين التاريخ والواقع وقوعا لا يحسد عليه فلم يستطع إرضاء
علماء اللغة بشعره والحصول على حكمهم بجودة شعره." (18)

حكى عن الأصمعي قال: "حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر فقال له ابن
مناذر: يا أبا محرز إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير فهذه أشعارهم مخلدة فقس شعري
إلى شعرهم. قال: فأخذ صفحة مملوءة مرقا فرمى بها عليه" (19)

وهذه الفعلة من أبي محرز تدل دلالة واضحة على التعصب الأعمى للقديم وأنكر على من
يميل إلى القدماء من الشعراء ويسير على سننهم من أن يقارن نفسه بهم، لأنه بلا شك في
نظره دونهم .

وينضم إلى سلسله المتعصبين للقديم الأصمعي الذي كان في الغالب يتعصب للقديم وهو كأبي عمرو بن العلاء يتعصب للجاهليين ومن مواقف تعصبه ما يرويه أبو حاتم السجستاني "أنه سأل الأصمعي عن جرير والفرزدق والأخطل: هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن ولا أقول فيهم شيئا لأنهم إسلاميون" (20)

ويروى عنه أيضا: ما قاله أبو حاتم: "وسألت الأصمعي من الأشعر الراعي أم ابن مقبل؟ قال ما أقرهما. قلت لا يقنعنا هذا، قال: الراعي أشبه شعرا بالقديم وبالأول" (21) وهذه النظرة غير الموضوعية من الأصمعي سادت ذلك العصر لتبين لنا التعصب المقيت للقديم دون سبب، وتقلل من شأن الحديث وأصحابه من الشعراء الفحول دون سبب.

ثانيا: المنصفون:

لم يخل العصر من النظرات الموضوعية، فلا بد في كل عصر من أن تجد من يقف مع هذا الحدث الجديد ويعجب به ويتذوقه ويحكم عليه. ولكن من الأمور اللافتة للنظر أن بعض المتعصبين للقديم نجد منهم من ينصف الحديث ويتراجع عن رأيه ويبدو مثل هذه المواقف التي لا تثبت على رأي ربما تدل على عدم الانخراط في الحياة الجديدة والتعلق في الماضي يشده إلى الوراء فيعيش في تناقض ومنهم أبو عمرو بن العلاء الذي كان من المتعصبين للقديم إلا أننا نجد شعراء ينصفون الشعراء ببشار بن برد فهو يروي ديوان ذي الرمة ويختم به الشعراء الذين يحتج بشعرهم في اللغة والنحو والغريب ويختم الشعراء بشاعر أحدث وهو كما ذكرت سابقا ببشار بن برد. ومثله خلف الأحمر فيذكر الأصفهاني: "أن بشارا أنشد خلف الأحمر قصيدته في سلم بن قتيبة فلاحظ فيها إكثاره من الغريب، وسأله عن سبب ذلك فقال له: إن سلما يتباصر بالغريب وأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه" (22)

وتأمل قصة أخرى يرسخ بها في نفسك ما ذكرته آنفا. قال الأصمعي: "كنت أشهد خلف ابن أبي عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر يأتيان ببشارا، ويسلمان عليه بغاية التعظيم، ثم يقولان: ما أحدثت؟ فيخبرهما، وينشدهما، ويسألانه، ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الظهر، ثم ينصرفان عنه .

وأتيه يوما فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكما، قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، فقال: نعم، بلغني أن سلما يتناصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه، قال: فأنشدهما:

بَكْرًا صَاحِبِيَّ قَبْلَ الْهَجْرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان (إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ): (بَكْرًا فَالنَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ) كان أحسن، فقال بشار: بنيتها أعرابية وحشية، فقلت:

(إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ) كما يقول الأعراب البديويون، ولو قلت: (بكر فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف، فقبله بين عينيه " (23). يبدو أن خلفا لم يكن معجبا بشار بن برد بقدر ما أعجب بجوابه، فالجواب يتساق مع ما يؤمن به خلف الأحمر بشار في جوابه عاب المولدين ولهذا قبله خلف.

والأصمعي كذلك فقد كان من المتعصبين للشعر القديم ومع ذلك يذكر ابن المعتز أنه سجل إعجابه بابن هرمه أحد مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية (24). ونجده يفضل بشار بن برد على مروان بن أبي حفصة: "فقد سأله أبو حاتم السجستاني عن بشار ومروان أيهما أشعر؟ فأجاب بشار أشعرهما، قال وكيف ذلك؟ قال: لأن مروان سلك طريقا أكثر سلاكة، فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره، وأن بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه، وهو أكثر فنون شعره وأقوى على التصرف وأغزر بديعا، ومروان أخذ بمسالك الأوائل" (25) أي موقف هذا الذي يمدح بشارا ويمدح بديعه؟! أي موقف الذي عاب فيه مروان لأنه سلك طريق الأوائل؟! يبدو أنهم يسرون على قول القاضي الجرجاني: "ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الإنصاف على قلبه في الوقت بعد الوقت فيخلع رداء العصبية ويصغي ويميز فيرجع" (26)

الاستشهاد بشعر أبي تمام:

تباينت المواقف حول الاستشهاد بشعر أبي تمام فلم ينص المعيار اللغوي على الاستشهاد بشعره فهو مولد محدث، والمولدون والمحدثون لا يحتج بشعرهم مهما بلغت ذروة فصاحتهم،

ولكننا لا نعدم وجود من استشهد بشعر المحدثين ومنهم الزمخشري، ولكنه لم يأخذه بأصالة الشاهد الحقيقي يقول في ذلك: "وأظلم (يحتمل أن يكون غير متعد و أن يكون متعديا منقولاً من ظلم الليل وتشهد قراءه زيد بن قطيب أظلم على ما لم يسم فاعله وجاء بشعر حبيب بن أوس :

هما أظلما حالي ثمت أجليا ... ظلالميهما عن وجه أمرد أشيب

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره باللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه" (27)

فترى الزمخشري (ت528) أول من استخدم عبارة ما يقوله بمنزلة ما يرويه، وموطن الشاهد الفعل أظلم فهو فعل لازم غير أن الزمخشري ذهب إلى أنه متعد ويبنى للمجهول وأورد قول أبي تمام السالف الذكر ولكن من اللافت للنظر أن الزمخشري الذي عاش في القرن السادس فهو من علماء اللغة المتأخرين، وفي موقفه هذا خالف ما كان عرفا لغويا متوارثا من قبل . وذكر السيوطي في الاقتراح كلام الزمخشري في الاستشهاد بشعر المولدين، فذكر ما قاله في تفسير أظلم. (28)

فقد تعرض لهذا الموضوع تعرضا سريعا مختصرا فنقل الرأي دون تعليق من حيث الرفض أو التأييد لكنه صرح قبل أن ينقل رأي الزمخشري: "أجمع العلماء على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية (29)

ولكن من العجب العجيب أن العصر لم يطبق على بعض الشعراء مثل بشار بن برد ويبدو أن الخوف من لسانه جعل علماء الشعر يستشهدون بشعره. فقد روي أن الأخفش عاب عليه بعض قوله فوصل ذلك إلى بشار فقال: "ويلي على القصار ابن القصارين، متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصارين؟ دعوني وإياه، فبلغ ذلك الأخفش فبكى فقبل له: ما يبكيك؟ قال وقعت في لسان الأعمى فذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه وسألوه ألا يهجو، فقال وهبته للؤم عرضه" (30)

ومثله سيبويه فقد احتج ببعض شعره خوفا من هجائه (31)

لقد أضع اللغويون ثروة هائلة من مادة اللغة التي أتتجها الشعراء الذين انصرفوا عنهم، ويتضح أن علماء اللغة حددوا عصر الاحتجاج ولكنهم لم يلتزموا به، وتفضيلهم للشعراء والاحتجاج بشعرهم لم يُبن على أسس دقيقة، بل بنى على العصر نفسه فالتفضيل بالعصر لا بالمادة والشواهد على ذلك كثيرة منها: أنشد إسحق الموصلي الأصبغي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فييل الصدى ويشف الغليل

إن ما قل منه يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الحسرواني لمن تنشدني فقلت إنهما ليلتئها فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر(32)

ومنها أيضا: "أخبرنا أبو بكر الجرجاني عن أحمد بن عبيد بن ناصح قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: إنما أشعار هؤلاء المحدثين- مثل أبي نواس وغيره- مثل الريحان يشم يوما فيذوي فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا"(33)

ويقول أيضا عندما سمع شعرا لأبي نواس: "أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا أبو عبد الله التميمي، قال كنا عند ابن الأعرابي فأنشده رجل شعرا لأبي نواس أحسن فيه فسكت فقال له الرجل: أما هذا من أحسن الشعر؟ قال: فقال: بلى ولكن القديم أحب إلي".(34)

وابن الأعرابي أعلنها صراحة أن الشعر القديم أحسن من أشعار المحدثين هكذا كان التفريق مبنيا على العصر وليس على جودة الشعر وحسنه، وكان تعصب علماء اللغة للشعر القديم وزرايتهم لشعر المحدثين ظاهرة عامة في هذا العصر. يقول شوقي ضيف: "كانوا يعدون أنفسهم حماة الفصحى، وأن من نوهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزروا به لم تقم له قائمة وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم وخاصة في أول أمرهم، كما يحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول: لما عرض لي الشعر أتيت جارا نحويا هو الماضي وأنا يومئذ حديث السن فقلت له: "إن رجلا لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء من الشعر فكره أن يظهره حتى تسمعه، قال هاته، وكنت قد قلت شعرا ليس بجيد إنما هو قول مبتدئ فأنشدته إياه فلما سمعه نهرني عليه وذمه"(35)

وقد تباينت الآراء في سبب موقف اللغويين من الشعر الجديد وقد أوجزها الحديدي فيما يأتي (36):

1. حرصهم على فصاحة اللغة وسلامتها، ومن وجهة نظرهم أن هذه الخاصية تتواجد في شعر الأقدمين .

2. حاجاتهم إلى الشاهد الشعري في مجالات اللغة والنحو وغيرهما، والشعر القديم يمددهم بالشواهد اللازمة، بينما يرون أن الشعر الحديث لا يمتلك هذه الميزة.

3. تمرسهم على قراءة الشعر القديم وحفظه وروايته، والخوض في شعرائه، فسهل عليهم بينما شعر المحدثين لم ينل تلك الأمور فكان غريبا على بيئتهم وأذواقهم.

4. شيوع اللحن والألفاظ المعربة والألفاظ المولدة والألفاظ الأجنبية في شعر المحدثين، وهذا يضعفه عند قوم يهتمون بالفصاحة وسلامة اللغة فعرضوا عنه.

5. استغلاق بعض المعاني عليهم، وشاع في شعر المحدثين الصنعة والبديع وتكلفوا فيه أحيانا فصرفهم هذا عنهم، فقد كان ابن الأعرابي يتعصب على شعر أبي تمام ويقول في شعره: "إن كان شعرا فكلام العرب باطل" (37)

وأنشده أبو حاتم السجستاني شعرا لأبي تمام فاستحسن بعضا واستقبح بعضا، وجعل الذي يقرؤه عليه يسأله معانيه فلا يعرفها أبو حاتم. يقول: "أنشده أبو حاتم شعرا لأبي تمام فاستحسن بعضه و استقبح بعضا وجعل الذي يقرؤه عليه يسأله عن معانيه فلا يعرفها أبو حاتم فقال: ما أشبه شعر هذا الرجل إلا بثياب مصقلات خلقان لها روعة وليس لها مفتش" (38)

6. شيوع الصنعة والبديع في شعر المحدثين، واللغويون يميلون إلى الطبع والفطرة فكانوا يفضلون في الشعر القديم الجمال القائم على الفطرة.

7. اعتقادهم بأن الحضارة تفسد الملكة اللغوية ونتقص البيان وتجلب اللحن، والشعر الحديث في معظمه شعر حضارة، لذلك رفضوه، ويمكن أن نضيف سببا آخر وهو أن اللغويين والنحويين قد اعتادوا سمتا معيننا من اللغة وهي لغة البداوة أما لغة الحضارة وما يعترئها من ألفاظ تعبر عن معان جديدة فلم يعتادوا عليها لذلك نجد روايات تعضد هذا، منها: "حدثني ابن الأعرابي المنجم قال كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه كأنه كان يعلم

ما يقول، فأعد جوابه، فقال له رجل، يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فقال: وأنت لم تعرف من الشعر ما يقال: فأفحمه" (39)

ومنها أيضا: "حدثني أبو العباس عبد الله بن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد المبرد يوما فأفضنا في ذكر أبي تمام وسألته عنه وعن البحري فقال: لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحري وهو صحيح الخاطر وحسن الانتزاع... وأبو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان أعجب إلى الأصمعي وما أشبهه أبا تمام إلا بغائص يخرج الدرّة والمخشلبة" (40)

وقد كان أبو تمام صاحب مذهب عرف باسمه، وكان له من التجديد ما كان، ومن مواطن تجديد أبي تمام ما يسمى ارتفاع الشعر بالجمهور: "وهذه الفكرة، فكرة ارتفاع الشعر بالجمهور نراها عند أبي تمام لأول مرة في تاريخ الشعر العربي، وهي إحدى الأفكار المهمة التي تثار في النقد الحديث، فهل يحسن في الشاعر أن يسير وراء الجمهور أو يحسن به أن يصعد بالجمهور إلى أفاقه العليا من الفلسفة والثقافة والعمق" (41)

لذلك فقد رأيناه يقول لمن يسأله لماذا لا تفهم ما يقال. لقد صار أبو تمام على هذا المنهج لإيمانه من أن الدرس اللغوي قد مات، وخلفه درس آخر عقلي فلسفي، والبيئة العباسية هي لمن يعن بها بيئة عقلية، فنظم أبو تمام على منوال هذه البيئة فدام شعره ديمومة هذا التيار (42).

ومن مظاهر التجديد عند أبي تمام تحميل الألفاظ أكثر من معانيها يقول أدونيس: "عيب عليه أنه يخالف قواعد اللغة، لأنه متعمق في المعاني، فيضطره هذا التعمق إلى أن يحتمل اللغة أكثر مما تطيق ولا يجوز لمحدثين أن يتصرفوا باللغة في نظرهم" (43).

لذا نجد أن أبا تمام في مذهبه تجاه اللفظ والمعنى يخرج على اللغة، ويسعى إلى المعنى البعيد فيضطر إلى تسخير اللغة له، يقوم مذهب أبي تمام على اعتماد المعنى غير المؤلف واستخدام الكلمة العربية بطريقة غير مألوفة أي نقل اللفظ عن معناه غير المعروف وهو مذهب مخالف للطريقة التقليدية لكن إذا كان خروجاً على الطريقة فهو ليس خروجاً على الشعر بل إنه أفق شعري آخر. (44)

إن موقف اللغويين والنحويين من الشعر الحديث كان فيه شطط وبعد عن الموضوعية، وإن كانوا معذورين في الحفاظ على اللغة، ولكن عيبهم أنهم رفضوا الشعر الحديث برمته حتى ما جاء منه محتذيا النمط الشعري القديم، وحتى ما كان جيدا منه رفضوه، ومما يؤيد ذلك، ما قاله ابن رشيق القيرواني "وليس شعر المولدين على نمط واحد، فبينما ترى قطعة من الديباج إذا بك ترى قطعة مسح وقطعة نطع وأن مثل القدماء والمحدثين كممثل رجلين ابتداء هذا بناء وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهره على ذلك وإن خشن" (45)

ويبدو أن ابن قتيبة صاحب نظرة منصفة عندما يقول: "ولم أسلك فيما ذكرته من كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسّن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله" (46)

هذا هو الإنصاف الذي يسعى إليه صاحب النظرة الموضوعية التي يتذوق الجيد في أي رحم كان وفي أي مكان ولد.

الخاتمة:

وبعد، فإن أبا تمام قد ابتدع لنفسه مذهبا حتى عرف باسمه، إنه صاحب فلسفة خاصة لم يستطع اللغويون والنقاد أن يصلوا إلى درجاته الرفيعة ومكانته المرموقة بشهادة قطب الموازنة، وهو البحتري، حيث يقول فيه: "والله ما أكلت الخبز إلا به" (47)

وعندما يسأل عن أيهما أشعر هو أم أبو تمام فيقول: "جيده خير من جيدي ورديته خير من رديهي. قال أبو بكر وقد صدق البحتري في هذا جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد في زمانه وربما اختلف لفظه لا معناه والبحتري لا يخلت". (48)

إذا كان هذا الشاعر الذي وضع في مقابل أبي تمام في الموازنة يشهد لأبي تمام بعلو الكعب فكيف لا يشهد له من لا يعرف من الشعر إلا الفاظه ليستشهد بها على قاعدة نحوية أو معنى

لغوي، لقد أجحف علماء اللغة والنحويون بحق أبي تمام بخاصة والشعر الحديث بعامه، فأبو تمام صاحب ثقافة وفلسفة والذين حكموا عليه لم يصلوا إلى درجة ثقافته وفلسفته فلم يفهموه فقللوا من شأنه، ففي شعر أبي تمام من الروعة والجمال والانزياح وتشقيق البنى وغير ذلك ما يستحق أن يستشهد به، ومن هنا وجدنا أن أبا تمام قد عوقب لأن أقرانه لم يفهموه واللغويون تعاوروه ولم يعوا ألفاظه ولا معانيه فحاربوه، لأنه أتى بما لم يقدر أحد أن يأتي في عصره بمثله وكذلك لم نعدم القوة في كل ما أنتجه أبو تمام، لأن فطرته هي التي هيمنت عليه، وموهبته هي التي تحكمت فيه، وشعوره القوي واعتزازه بذاته، وهو الذي انتزع وسائله ثم انتزع المكان الذي بلغه انتزاعا، وأختم بقول صاحب عبقرية أبي تمام: "ولقد ذهبت طيء بالفخرين من جود حاتم وشعر أبي تمام حتى صح أن نقول: إن جود حاتم على الناس استرده أبو تمام من الناس. فلم تخسر طيء ما جادت به من مال ولكنها غنمت الحمدين وربحت الحسين من جود البنان وجود البيان"(49)

الهوامش

1. عيد، محمد، الرواية والاستشهاد باللغة، القاهرة، عالم الكتب، 1976، ص154
2. القيرواني، ابن رشيقي، العمدة، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ط4، بيروت: بيروت، دار الجليل، 90/1/1972،
3. إبراهيم، طه احمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1985، ص60، 61
4. نفسه، ص66
5. الحديدي، عبد اللطيف، الخصومة بين القدماء والمحدثين في العصر العباسي الأول، ط1، مصر: دار السعادة، 1995، ص30
6. ينظر: الحديدي، عبد اللطيف، الخصومة بين القدماء والمحدثين في العصر العباسي الأول، ص31

7. (الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، شرحه: احمد عارف الزين، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، ص50
- 8). الصولي، أبو بكر، أخبار أبي تمام، حققه وعلق عليه محمد عزام وآخرون، ط3، بيروت: دار الأفاق الجديدة 1980. ص175-176
9. إبراهيم، طه، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص99 و.المرزباني، الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة دار النهضة، 1965، ص384
- 10) أبو الفرج، الأصفهاني، الأغاني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 18/184
11. ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني، ط3، القاهرة، دار المعارف، ص183
- 12). ينظر: عيد، محمد الرواية والاستشهاد، ص5
- 13). ينظر عيد، محمد، الرواية والاستشهاد في اللغة، ص156
- 14). البغدادي، عبد القادر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1، 1967/6
- 15) نفسه والصفحة نفسها
- 16) إبراهيم، طه، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص98
- 17) نفسه والصفحة نفسها
- 18) الحديدي، عبد اللطيف، الخصومة بين القدماء والمحدثين في العصر العباسي الأول، ص92
- 19) المرزباني، الموشح، ص453
- 20). الأصمعي، فحول الشعراء، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة، القاهرة: المطبعة المنيرية في الأزهر، 1953، ص23
- 21). نفسه والصفحة نفسها.

- (22) الأصفهاني، الأغاني، 190/3
- (23) الأغاني، 190/3، ودلائل الإعجاز : 272 ، والقصيدة في ديوان بشار 203/3
- (24) ينظر :ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق، عبد الستار أحمد، ط4، مصر، دار المعارف، ص20.
- (25). الأصمعي، فحولة الشعراء، ص 37
- (26) الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، ص 51
- (27) الرمحشري، جار الله، الكشاف، بيروت: دار الفكر ،1، 220/1983-221
- (28) ينظر :السيوطي ،عبد الرحمن، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق :حمدي عبد الفتاح ،1999، ص79
- (29) نفسه، والصفحة نفسها
- (30) المرزباني، الموشح ،ص385
- (31) ينظر نفسه ،ص385-386
- (32) البحث، ص 6
- (33) المرزباني ، الموشح، ص384
- (34) نفسه، والصفحة نفسها
- (35) ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني ،ط3، القاهرة: دار المعارف ،ص183-184
- (36) ينظر :الحديدي، عبد اللطيف، الخصومة بين القدماء والمحدثين، ص ص117-119
- (37) إبراهيم ،طه، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص30 وأخبار أبي تمام، ص243
- (38) الصولي، أخبار أبي تمام، ص244
- (39) الصولي، أخبار أبي تمام، ص72

- (40) نفسه، ص96-97
- (41) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه، مصر، دار المعارف، ص240
- (42) إبراهيم، طه، تاريخ النقد عن العرب، ص60
- (43) أدونيس، زمن الشعر، ط2، بيروت: دار العودة، 1978، ص30
- (44) الآمدي، الموازنة بين الطائيين، 397/1
- (45) القيرواني، ابن رشيق، العمدة، 57/1
- (46) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 69-68/1
- (47) الصولي، أخبار أبي تمام، ص67
- (48) نفسه، والصفحة نفسها.
- (49) سيد، عبد العزيز، عبقرية أبي تمام، ط2، بيروت دار العلم للملايين، 1962، ص154